الأجنبيّــــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أَحبَّها وأحبّتْه، حتى ذهب بها في الحب مَذْهباً قالت له فيه: «لو جاءني قلبي في صورةٍ بشريّة لأراه كما أُحِسُّه، لما اختار غيرَ صورتك أنتَ في رقّتك وعطفك وحنانك.»

وحتى ذهبتْ به في الحب مذهباً قال لها فيه: «إنّ الجنة لا تكون أبدعَ فناً، ولا أحسنَ جمالاً، ولا أكثر إمتاعاً لو خُلِقَت امرأةً يهواها رجل؛ إلا أن تكون هي أنتِ.» فقالت له: «ويكونَ هو أنتَ...»

وتَدَلّهتْ فيه، حتى كأنما خَلَبها عقلَها ووضع لها عقلاً من هواه؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذاتِ نفسها: «إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتبرِّئةً من أنها إرادة، مُقِرّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر، مُذْعِنةً أنها قد سلّمت كبرياءَها لهذا الحبيب، لتراه في قوّته ذا كبريائين.»

وافتتن بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخذ، فملأتْ نفسَه بأشياء، وملأت عينَه من أشياء؛ فكان يقول لها في نجواه: «إني أرى الزمن قد انتسَخَ مما بيني وبينك، فإنا نحن بالحب في زمنٍ من نفسَيْنا العاشقتين لا يُسمّى الوقتَ ولكن يسمّى السرور، وإنما نعيشُ في أيامٍ قلبيّةٍ لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها، ولكنِ السعادةُ بحقائقها ولذّاتها.»

وتحابّا ذلك الحبَّ الفنّيَّ العجيبَ الذي يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يَفيضُ وينسكب، وهو مع ذلك لا يَبْرح يطالب الزيادة، ليتخيّل من لذتها ما يتخيّلُ السكّيرُ في نَشْوته إذا طفحت الكأس، فيرى بعينيه أنها ستتّسع لأكثرَ مما امتلأتْ به، فيكونُ له بالكأس وزيادتها، سُكْرُ الخمرِ وسكْرُ الوهم.

تحابّا ذلك الحبَّ الفوّار في الدم، كأن فيه من دَوْرته طبيعةَ الفراقِ والتلاقي، بغير تلاقٍ ولا فراق؛ فيكونان معاً في مجلسهما الغَزَليّ، جَنْبَهُ إلى جنبها وفاها إلى فيه(1) وكأنما هَرَبَتْ ثم أدْرَكَها، وكأنما فَرّتْ ثم أمسكَها. وبين القُبْلةِ والقُبلةِ هِجرانٌ وصلح، وبين اللّفتةِ واللّفتة غضبٌ ورضى.

وهذا ضَرْبٌ من الحب يكون في بعض الطبائع الشاذّة المُسْرِفة التي أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها فيَلِفُّ الحيوانيّةَ بالانسانية، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها؛ لا تلتقي إلا لتمازج، ولا تمازجُ إلا لتتّحد، ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك

* * *

وضَرَبَ الدهرُ من ضَرَباتِه، فأبغضتْه وأبغضها، وفَسَدَتْ ذاتُ بينهما، وأدبر منهما ما كان مُقبِلاً؛ فوثَبَ كلاهما من وجود الآخر وثبةَ فَزِعٍ هارباً على وجهه. أما هو فتسخّطها لعيوب نفسها، وأما هي... وأما هي فتكرّهته لمحاسنِ غيره. وانسربتْ أيامُ ذلك الحب في مساربها تحت الزمن العميق الذي طَوَى ولا يزالُ يَطْوِي ولا يبرحُ بعد ذلك يطوي؛ كما يغور الماءُ في طِباق الأرض. فأصبح الرجلُ المسكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلةَ أقاربَ وأصدقاءَ وأحِبّاءَ ماتوا بعضُهم وراءَ بعض، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فكْرَه، فكانوا له مادّةَ حسرة ولهفة. أما هي... أما هي فانشقّ الزمنُ في فكرها برجّةِ زلزلة، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم...!

* * *

حدّثنا «الدكتور محمد» رئيس جماعة الطلبة المصريين في مدينة... بفرنسا، قال: وانتهى إليّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة، وأنه قادمٌ من مصر، فتخالَجَني الشوقُ إليه، ونزعتْ إلى لقائه نفسي، وما بيننا إلا معرفتي أنه مصريٌّ قَدِمَ من مصر؛ وخُيّل إليّ في تلك الساعة مما اهتاجني من الحنين إلى بلادي العزيزة، أن ليس بيني وبين مصرَ إلا شارعان أقطعُهما في دقائق؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه، كما يصنع الطير إذا ترامى إلى عُشّه فابتَدَرَهُ من قُطْرِ الجوّ

(1) تأويل هذا في باب (الحال) عند ظرفاء النحويين: متلاصقين متعانقين

قال : وأصبتُه واجماً يعلوه الحزن ، فتعرّفتُ إليه فما أسرعَ ما مَلأ من نفسي وما ملأتُ من نفسه . وكما يمّحي الزمانُ بين الحبيبَين إذا التقيا بعد فُرْقة — يتلاشى المكانُ بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقَوا في الغُربة . فذابت المدينةُ الكبيرةُ التي نحن فيها ، كأنْ لم تكن شيئاً ، وتجلّى سحرُ مصر في أقوى سطوته وأشدها ، فأخذَنا كأننا فما استشعرْنا ساعتئذٍ إلا أن أوروبا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللْنا مصرَ في محلها

وطغى علينا نازعُ الطرَب طغياناً شديداً ، فأرسلْتُ من يجمع الاخوانَ المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة ، فنزا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يُؤَذِّن فيهم لاقامة الصلاة . وجاءوا يُهَرْوِلون هَرْولةَ الحجيج ، فلو نطقَتْ الأرضُ الفرنسية التي مَشَوا عليها تلك المِشْيةَ لقالت : هذه وَطْأةُ أسودٍ تتخيَّل خُيَلاءَها مِن بَغْيِ النشاط والقوة

ألا ما أعظمَكِ يامصر ، وما أعظمَ تعنُّتَكِ في هذا السحر الفاتن ! أينبغي أن يغتربَ كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبويّ العظيم « مصرُ كِنانةُ الله في أرضه . » فيعرفوا أنك من عِزّتك معلَّقةٌ في هذا الكون تعليقَ الكنانة في دار البطل الأرْوع ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا في الدار التي أَنزِلُ فيها ، فراع ذلك صاحبةَ مَثْواي(١) ، فقلت لها : إنّ هٰهنا ليلةً مصرية ستحتلُّ ليلتكم هذه في مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتُها الى مجلسنا لتشهدَ كيف تَستَعْلِنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقّتها وظرفها وحماستها ، وكيف تُفسِّر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جيلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنّانة ، وكيف تكون هذه الروحُ في جوّ موسيقيّتها الطبيعية حين تُناجي أحبابَها ، فيجيء حديثُها بطبيعته كأنه ديباجةُ شاعرٍ في معانيها وحلاوتها ورنين ألفاظها ؟

(١) صاحبة المثوى هي ربة البيت الذي ينزل فيه الضيف ومن كان في حكمه ، يقول العربي : من كانت صاحبة مثواك ؟ تطلق على صاحبة البنسيون

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخذُ زينتي ، وأصلح من شأني ، وأكون بعد خمس دقائق في مصر !

قال الدكتور : وأخذْنا في شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسن الصوت فقام الى البيانة(١) وغنّى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التي تُطَقْطِقُ فيها النفس ، فجعل يمطُلُ صوتَه بآه ، وآه ، ودار اللَّحنُ دورةً تأوّهت فيها الكلماتُ كلُّها . ثم اعتورَ البيانةَ طالبٌ آخر فما شذَّ عن هذه السنَّة ، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوب النائحة . فمالت عليّ السيدة الفرنسية وأسرّتْ إليّ : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا اللحنَ تاريخي ذو مقطوعتين كانت تَتَطارحه كيلوبترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوبترة . فأعجبت المرأة أشد الأعجاب ، وأكبرتْ منا هذا الذوقَ المصريَّ أن نكرمها لوجودها في مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة ، وطربتْ لذلك أشدَّ الطرب ، وملكَها غرُور المرأة ، فجعلت تستعيد « يالوعتي ، ياشقايَ ، ياضنيَ حالي . . . » وتقول : ما كان أرقّ كيلوبترة ! ما كان أرقّ أنطونيو ! ياَلفِتنةِ الحب المَلَكي !...

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنَّث ، ومن تلفيق الذي لفقته للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضْتُ انتفاضةَ من عِلْؤه الغضب ، وقد حَمِيَ دُمه ، وفي يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدوّ الوقح ؛ وثُرْتُ الى البيانة فأجريتُ عليها أصابعي ، وكأنّ في يديّ عشرة شياطين لاعشرة أصابع ، ودوّى في المكان لحنُ « اسلمي يامصر » وجلجلَ كالرعد في قبة الدنيا ، تحت طِباق الغيم ، بين شرار البرق . فكأنما تزلزلَ المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً ، وصرخَ أجدادُنا يزْأرون من أعماق التاريخ : « اسلمي يامصر » . ولما قطعْتُ التفتُّ إليها في كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلتُ لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين

ثم راجعْنا صاحبَنا الضيف ، وأحفَيْناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعَنا طويلاً : إنه يحسن شيئاً من الموسيقى ، وإن له لحناً سيُطارحنا به لنأخذه عنه . فطربنا بلحنه قبل أن نسمعه ،

(١) البيانة : كلة استعملناها في كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات

وقلنا له : افعلْ متفضلاً مشكوراً ، وما زلنا حتى نهض متثاقلاً فجلس الى البيانة وأطرق شيئاً ، كأنه يُسوّى أوتاراً فى قلبه ، ثم دقّ يتشاجى بهذا الصوت :

أضاع غدى من كان فى يده غدى
وحطّمنى من كان يجهدُ فى سَبْكى
فان كنتُ لا آسى لنفسى فمَنْ إذن ؟
وإن كنتُ لا أبكى لنفسى فمن يَبكى (١)

قال « الدكتور محمد » : فكان الغناء يعتلج فى قلبه اعتلاجا ، وكانت نفسه تبكى فيه بكاءها وتَغُصّ من غصّتها ، وكأن فى الصوت فكراً حزيناً يشتعل فى همٍّ موسيقى ؛ وخيل الينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها ، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوت انسانىّ وأجملُه وأشجاه وأرقُّه .

فأطفْنا به وقلنا له : لقد كتمتَنا نفسَك حتى نَمَّ عليها ما سمعنا ، وما هذا بغناء ، ولكنه هموم مُلَحَّنة تلحيناً ، فلن ندعَك أو تُخبّرَنا ما كان شأنُك وشأنها .

فاعتَلّ علينا ودافَعَنا جهدَه ، فقلنا له : هيهات ؛ والله لن نُفْلِتَكَ وقد صرتَ فى أيدينا . وإنك ما تزيدُ على أن تَعِظَنا بهذه القصة ؛ فان أمسكتَ عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا ، وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلمٍ من علم الحياة تُفيدُهُ منك ؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا فى اجتماع فاسدٍ كلُّه قِصَصٌ قلبيّة ، بين نساء لا يَلْبَسْنَ إلا ما يُعَرِّى جمالَهن ، وفى رجالٍ أفرطتْ عليهم الحرية ، حتى دخل فيها تَخْدعُ الزوجة . . . !

قال الدكتور : ونظرتُ فاذا الرجل كاسِفٌ قد تغيّر لونُه ، وتَبَيَّنَ الانكسارُ فى وجهه ، فألْمَمْتُ بما فى نفسه ، وعلمتُ أنه قد دُهِىَ فى زوجة من هؤلاء الأوربيّات اللواتى يتزوّجن على أن يكون تخدعُ المرأة منهن حرّاً أن يأخذ ويَدَعَ ، ويُغيّر ويبدّل ، ويقسم كلمة «زوج» قسمين وثلاثةً وأربعةً وما شاء . .

وكأنما مَسستُ البارود بتلك الشرارة ، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصةٍ ما أفظعَها !

قال : يا إخوانى المصريين ، قبل أن أنْقُضَ لكم ذلك الخبر ، أُسدِيكم هذه النصيحة التى لم يَضَعها مؤلفُ تاريخى لسوء الحظ ، إلا فى الفصل الأخير من رواية شقائى :

« إياكم إياكم أن تغتّرّوا بمعانى المرأة ، تحسبونها معانى الزوجة . وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ؛ فان فى كل زوجةٍ امرأة ، ولكن ليس فى كل امرأةٍ زوجة .

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونها النسائية الفرديّة ، كهذا السحاب الملوّن فى الشّفق حين يبدو ؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسخ مسخاً ؛ ولكنّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بَيْدَ أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقتُ كلُّه .

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوج بها مصرىّ هى مسدّس جرائم فيه ستُّ قذائف :

الأولى : بَوارُ امرأةٍ مصرية وضَياعُها بضَياع حقها فى هذا الزوج . وتلك جريمةٌ وطنية ؛ فهذه واحدة

والثانية : إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا فى هذا الاجتماع الشرقى ، وتوهينُه بها وصَدْعُه ؛ وهى جريمة أخلاقية

والثالثة : دَسُّ العُروق الزائغة فى دمائنا ونَسْلِنا ، وهى جريمةٌ اجتماعية

والرابعة : التمكينُ للأجنبىّ فى بيتٍ من بيوتنا ، يملكُه ويحكمُه ويُصرّفه على ما شاء ؛ وهى جريمة سياسية

والخامسة : للمُسْلِم منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة ، ثم تحكيمُه الهوى فى الدين ، ما يعجبُه وما لا يعجبه ، ثم إلقاؤه السمّ الدينىّ فى نَبْع ذُرّيته المقبلة ، ثم صَيْرُورتُه خِزْياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهن سَبايا ، ويجعلونهن فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذتْه هى رقيقاً لها ، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد . . . وهذه جريمةٌ دينية

والسادسة : بعد ذلك كلّه ، أن هذا المسكين يُؤْثِر أسفلَه على أعلاه . . . ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جرائم فظيعة

وهذه السادسة جريمة إنسانية !

* * *

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال . . !

إلى مصر — أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزانى وسعادتى! ولم يكن وعظنى أحدٌ بما أعظكم به الآن، ولا تنبّهتُ بذكائى الى أن الزوجة الأجنبية تثبتُ لى غربتى فى بلادى! وتُثبتُ علىّ أنى غير وطنىّ أو غيرُ تامّ الوطنية، ثم تكون منى حماقةً تثبت للناس أنى أحمق فيما اخترت؛ ثم تعودُ مشكلةً دولية فى بيتى، يزورها أبناءُ جنسها ويستزيرونها رغم أنفى وفمى ووجهى كلّه! ويستطيلون بالحماية، ويستترون بالامتيازات، ويرفعون ستاراً عن فصل، ويُرْخون ستاراً عن فصل ... وأنا وحدى أشهد الرواية ...!

إن الشيطان فى أوربا شيطانٌ عالم مخترع. فقد زيّن لى من تلك الزوجة ثلاثَ نساء معاً: زوجةً عقلية، وزوجةً قلبية، وزوجةً نفسيّة، ثم نفثَ اللعينُ فى رُوعى أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة. قال الخبيث: لأنها زوجة الجسم وحده، فلا تسمو الى العقل، ولا تتّصل بالقلب، ولا تمتزج بالنفس؛ وأنها بذلك جاهلة، غليظةُ الحسّ، خَشِنَةُ الطبع، لا تكون مع العصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصرية مع فلاّحها

لعنةُ الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع! ما علمت إلا من بَعدُ أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ هى كالنجم الذى تِبْرُهُ فى ترابه، وماسه فى فحمِه، وجوهرُه فى معدنه؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفّة المتنعة، وأن خشونتها من خشونة الحب المتزّن بنفسه، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى على المادة؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لا يدخله العجز، وكان لها الوفاءُ الذى لا تلحقه الشبهة، وكان لها الايثارُ الذى لا يُفسده الطمع. هى جاهلةٌ، ولها عقلُ الحياة فى دارها؛ وغليظةُ الحس؛ ولها أرقُّ ما فى الزوجة لزوجها وحده؛ وخَشِنَةُ الطبع، لأنها تتنزّه أن تكون مَلمَساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك... لا كامرأة الحب الأوربّية، التى تجعل نفسها أنثى الفن، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقىّ من التفضيل والايثار والاجلال والاباحة — فى كلمة «أنا» قبل كلمة «أنت». امرأةٌ أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاقٍ مُخرّبة مدمّرة تنفجر بين الوقت والوقت

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات، يتّهموننا به من عمىً وجهل وسخافة. أنظروا، هل هو إلا إعلانٌ لشرعيّة الرجولة والأنوثة، ودينيّة الحياة الزوجية فى أىّ أشكالها؟ وهل هو إلا إعلان بطولة الرجلِ الشرقىّ الأُنوف الغيور أن الزوجة تتعدّد عند الرجل ولكن ... ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوج يتعدّد عند المرأة ...!

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها، بقوة الشرع والقانون، نافذةً مؤدّاة، ثم لا يتّهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً مخادنةً ليس لها حقّ على أحد، ولا واجب من أحد، بل هى تتقاذفها الحياةُ من رجل الى رجل، كالسكّير يتقاذفه الشارع من جدار الى جدار

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنّث، الذى يجعل للمرأة الأوربيّة بعد أن يتزوّجها الرجل الشرقى أصابع «أوتوماتيكية»، ما أسرعَ ما تمتد فى نزوة من حماقاتها الى رَجُلها بالمسدّس، فاذا الرصاصُ والقتل! وما أسرع ما تمتد فى نزوة من عواطفها الى عاشقها بمفتاح الدار، فاذا الخيانة والعُهر!

ماذا تتوقّعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة، المتأنّقة بكل ما فيها أنوثةً تكفى رجالاً لا رجلا واحداً، وقد ضعُفت روحيّة الأسرة فى رأيها، وابتُذلت الزوجيّة فى مجتمعها ابتذالا، فأصبح عندها الزواجُ للزواج على إطلاقه، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه؛ وبذلك عاد الزواج حقّاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها؛ فان كان الزوجُ مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رَجلَ قلبها — فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتختار زوجَ قلبها ...! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىّ بمنزلة المرأة مع فاسق؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعىّ ...! وإن كان الرجل منحوساً مُخيّباً، وكان قد بلَغَ الى قلبها زمناً ثم ملّه قلبُها — فعليه أن يَدعَ لها الحرية لتتنقّل وتَلَذّ بلذات الهوى، ويقولَ لها: شأنَكِ بمن أحببتِ، فان هذا المنحوس المخيّب ليس عندها إنساناً، ولكنه رواية انسانية انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة، وبدأ فصلٌ آخر بحوادثَ غيرِ تلك. فلمَن يشهد الرواية أن يتبرّم ما شاء، وينتقل كما يشاء، ومتى شاء انصرف من الباب ...!

امرأةُ هذه المدنيّة هي امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلبِسُه العاطفةُ من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة

تقوى العاطفة فتجيء بها الى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهبُ بها مع رجل آخر . . . ! وتُقيِّد نفسها إن شاءت ، وتُسرِّح نفسها إن شاءت ؛ وما بُدّ من أن تَبلوَ الحياةَ كما يبلوها الرجل ، وأن تخوض في مشاكلها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلها . . ! ولا مندوحة من أن تتولىّ شأن نفسها بنفسها ، فاذا خاسَت أو غدرَت فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأيٌ وحقٌّ ، إذ كان مِحوَرُها الذي تدور عليه هوعاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة ؛ فَمَن هذا يقرِّر لها خطتها ، ويملي عليها واجباتها ، ويُزوِّر لها الأسماء على ارادته دون إرادتها ، فيسمي لها نَكَدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوّله الحق أن يقرّر وأن يُملي ؟

وهذا الشرقُ العتيقُ المأفونُ الذي قَبِلَها سافرة لا تعرف روحُها ولا جسمُها الحجاب ؛ ما بالُه يُريد أن يضربَ الحجاب على عاطفتها ، ويتركها محبوسةً في شرفه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبة في الدار ؟

ما علمتُ يا إخواني إلا من بَعد ، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكَها عليه ، ولن يُكرهَها على الوفاء له ، إلا أن تكون حُثالةً يزهد فيها حتى ذُبّابُ الناس ؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكينَ مطمعها ، وهي مع ذلك لو خلطَته بنفسها لبقيتْ منها ناحية لا تختلط ، إذ ترى أمّتَه دون أمتها ، وجنسَه دون جنسها ؛ فما تَسُب أمةَ زوجها وبلادَه بأقبح من هذا !

أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى . . . لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته ! وقد يكون هناك ما يَشذّ ، ولكن هذه هي القاعدة

***

أما قصتي يا إخواني . . . .

قال الدكتور محمد : قد حكيتَها « يرحمك الله »

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

٢ ـ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

لست أغلو إذا زعمت أنني في مطلع نشأتي الأدبية كان « مصباح الشرق » عندي هو المثل الأعلى للبيان العربي . وبهذا كنت شديد الاكباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان في روائع صيغه وطرائف عباراته . حتى لقد كنت أشعر أنني أرشُفها رَشْفاً لتدور في أعراقي وتخالط دمي ، وتطبع ملكتي على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولكن (ما كل ما يتمنّى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتًى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين في ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحي في المصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زادني وزاد لِداتي به فتونا

__كيف تمثل لي محمد المويلحي ؟ :__

لم تكن عيني الى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحي ، ولا خيارَ للمرء في تمثُّل صورة من لم يرَ من الأناسيّ ، وما لم يشهد من البقاع . فكانت الصورة التي جلاها عليّ الخيال لهذا الرجل ، صورة شابّ معتدل القدّ ، وضيء الطلعة ، وسيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيان الجوهري ليجلو عليّ من الرجل غيرَ ذلك . على أنني كنت أرى أباه ابراهيم بك الحينَ بعد الحين في زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفي زيارات والدنا له (بعمارة البابلي) يوم كنت أصحبه . وكان هذا المويلحي تحفة من تحف العصر التي قلّ أن يجود بمثلها الزمان : قوة لسَن ، واشتمال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعته وتوفيقه في إيراد الشاهد من عبر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يتعلّق بغباره فيه أحد . فكان مجلسه متاعاً من أعظم المتاع

على أنني لم أوفَّق الى رؤية المويلحي الابن مرةً واحدة !

وتتابعت السنون ، وخلص تحرير « المصباح » الى محمد . ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطَّيش من أبناء (الذوات) في إحدى القهوات . وانتهى الخبر الى المرحوم